

(1) النصوص

إذا كان شعر إحياء النموذج قد أولى الآخر كبير اهتمام باعتباره مهدوحاً أو مرثياً، فإن شعر سؤال الذات جاء لتصحيح هذه الوضعية، وذلك بالتركيز على ذات الشاعر وما يختلجها من أحاسيس متباينة. وقد استفاد شعراء هذا الاتجاه من اتساع ثقافتهم وانفتاحهم على الغرب، خاصة أولئك الذين أقاموا بالمهجر، واحتكوا بثقافة غيرهم. لذلك فقد تراوحت القصيدة عندهم بين تقليد القدامى بالنظر إلى أنهم لم يتمكنوا من التخلص منهم كلياً، وولوج عوالم التجديد أيضاً. ويعدُّ إيليا أبو ماضي من شعراء الرابطة القلمية التي مثلت الاتجاه الوجداني خير تمثيل، فما مظاهر الرومانسية في قصيدته ؟ وما مظاهر التقليد والتجديد فيها ؟

تقوم القصيدة على نظام الشطرين المتناظرين ووحدة حرف الروي، الشيء الذي يدعونا إلى افتراض تقليديتها. غير أن اسم الشاعر والإحالة على ذاته والطبيعة في البيتين الأولين يمكنان من افتراض رومنسيتهما، وبالتالي ورود بعض التجديد فيها، فلنتحقق من ذلك بالدراسة والتحليل.

يستهل الشاعر قصيدته بالإشارة إلى أثر جمال عيني حبيبته فيه. فقد حوله إلى شاعر ساهر، وعلماه الحب فلقنه بدوره لباقي عناصر الطبيعة. ثم ينتقل إلى وصف ما يُصيبه حين تغيب الحبيبة : يلتجئ إلى الطبيعة ليبثها همه الناجم عن الفقد فتتفاعل معه، وتصير بدورها حيرى شاكية.

وللتعبير عن هذه المعاني، التجأ الشاعر إلى ثلاثة حقول دلالية. تمثل الأول في حقل الذات «شاعرا ساهرا، عيني، أناجي، مثلي، تأثها، حائرا»، بينما يمثل الثاني حقل الحبيبة «عيناك، السحر، غبت، عنك». وقد توارى هذا الحقل ليفسح المجال أمام حقل ثالث هو حقل الطبيعة «القمر، الروضة، الليل، الورد، الربى، كوكب». وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة بين هذه الحقول الثلاثة علاقة تفاعل بلغت حد الحلول حين اتحد الشاعر بالطبيعة التي قاسمته سهره وحيرته وشكواه. لقد مكّن حقل الطبيعة الشاعر من التعبير عن معاناته لحظة فقد الحبيبة.

أما من الناحية التصويرية، فقد وظف الشاعر الصورة القائمة على التشخيص «سألت عنك القمر، الليل الشاعر، وراح يشكولي». من جهة أخرى، وظف الشاعر التشبيه كما في قوله «فبات مثلي ساهيا ساهرا»، حيث المشبه هو الكوكب والمشبه به هو الشاعر، بينما الأداة مثل ووجه الشبه هو السهر والسهاد.

وأما من الناحية الأسلوبية، فقد زواج الشاعر بين الجملة الفعلية «علمتني، وأطرق، وأنشق...» والجملة الاسمية «عيناك والسحر... كم نائم... وكوكب أسمعته...». ثم إن جميع جمل النص خبرية تعاضدت لنقل معاناة الشاعر واتحاد الطبيعة معه في مصابه. أضف إلى ذلك تنويع الشاعر للضمائر. فقد جمع بين ضمير المتكلم «عيني، سألت»، وضمير المخاطب «عيناك، علمتني، عنك»، وضمير الغائب «علمتهن كمها، فيها».

ولإضفاء جمالية على القصيدة واستمالة المتلقي، عمد الشاعر إلى إيقاع خارجي تمثل في نظم القصيدة على بحر السريع، وتوحيد القافية (ساحرا) وحرف الروي (الراء). وقد عزز الشاعر إيقاعه الخارجي بآخر داخلي تمثل في التكرار والتوازي. أما التكرار فتجده صوتيا في تكرار نفس المادة الصوتية في «علمتي، علمته»، وصرفيا في تكرار الصيغة (فاعل) في «شاعرا، ساحرا»، ومعجميا في تكرار الترادف «تائها، حائرا»، وتكرار التضاد في «لي/له». وأما التوازي، وهو تكرار نفس الخطاطة التركيبية، فتجده جزئيا في «يشكولي، أشكوله».

لقد نظم إيليا أبو ماضي هذه القصيدة للتعبير عن أثر فقد حبيبته فيه، ومدى تفاعل الطبيعة معه في عشقه وهيامه. وتظهر الرومانسية في القصيدة بشكل واضح؛ فذات الشاعر بارزة وحالة في الطبيعة. ثم إن الشاعر قد في هذه القصيدة وجدد. قلد حين نظم قصيدته وفق نظام الشطرين المتناظرين، ووحد قافيتها وحرف رويها. كما قلد حين قارب في التشبيه. غير أنه جدد حين منح ذاته المكانة الأبرز، واعتمد في التصوير التشخيص باعتباره أداة توصل بها الشاعر الرومانسي الذي هرب من الإنسان الشرير والتجأ إلى الطبيعة فأضفى عليها صفات إنسانية حرصا على إنسانيته.

وهكذا يمكن اعتبار تجربة سؤال الذات اتجاها شعريا أسهم في تطوير القصيدة العربية. فإذا كان الإحيائيون قد أعادوا الروح لهذا الكيان، متبعين في ذلك طرق الأقدمين، خاصة تركيز أغراضهم على الآخر، فإن الشاعر الرومانسي أولى ذاته كبير الاهتمام.

(2) المؤلفات

النص قيد التحليل يرد في الفصل الرابع من كتاب «ظاهرة الشعر الحديث» لأحمد المداوي (المجاوي). لقد خص الكاتب الفصلين الثاني والثالث من الكتاب بدراسة المضمون الشعري للشعر الحديث، مركزا على تجربتي الغربة والحياة والموت، بينما خص الفصل الرابع بدراسة الشكل الجديد الذي اقترحه هذا الشعر.

إن تجربة الشعر الحديث جديدة على جميع المستويات. فقد أفرزتها تداعيات موضوعية بارزة يأتي على رأسها «نكبة فلسطين» التي فجرت التمرد لدى فئة من الشباب. وكانت طريقة القدامى في التصور والنظم إحدى ضحايا هذا التمرد. تمرد شعراء الشعر الحديث على شكل النظم فنزعوا بلفتهم في اتجاه المثالية والفموض، مبتعدين بذلك عن لغة التواصل اليومي، وشاحنين ألفاظهم بدلالات كثيفة يحتاج فك شفرتها لثقافة واسعة وإدراك للسياقات. ثم إن من بواعث الكثافة الدلالية في الشعر الحديث اعتماده الرموز والأساطير التي استقاها الشاعر الحديث من الثقافات الإنسانية. وقد مس التجديد الشكلي عندهم أوزان القصيدة. فإذا كانت القصيدة القديمة قد سقطت في نمطية النظم، فإن شعراء الشعر الحديث تحرروا في هذا الصدد، معتمدين في ذلك على التصرف في التفعيلة، وامتداد الأسطر بحسب طبيعة الدفقات الشعرية. وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى التوافق بين هذه التجديدات وبين تجربة الشعر الحديث على مستوى التصور والفلسفة.

اعتمد أحمد المداوي في معالجته قضية الشكل الجديد وغيرها من القضايا الواردة في هذا المؤلف منهجا تتعدد أوجهه. فالكاتب يعمد إلى التاريخ لوضع القضايا في سياقها، وعلم النفس يحضر حين يود الكاتب ربط التجارب بنفسية المبدعين، بينما يحضر المنهج الفني-اللغوي حين يعمد الكاتب إلى الدراسة الداخلية لمكونات النصوص المدروسة للوقوف على مقوماتها التصويرية والإيقاعية واللفوية.